الفصل السادس

التفسير العلمي للقرآن الكريم في أعمال المعاصرين(*)

تمهيد

حدّث الترمذي بسنده عن علي بن أبي طالب - كرّم الله وجهه - قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ستكون فتن كقطع الليل المظلم» قلت: يا رسول الله، وما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله - تبارك وتعالى - فيه نبأ مَنْ قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحُكْم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، مَنْ تركه مِن جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، لا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ... ﴾ [الجن: 1، 2]. من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم».

والقرآن الكريم - من قبل ومن بعد - هو كتاب الإسلام الخالد الذي يوجه الإنسان نحو المعرفة العلمية قراءة وبحثًا وتعليمًا وتدوينًا وتطبيقًا، ويبين لنا أن الكون كله كتاب منظور يدلّ ويبرهن على وجود الخالق ووحدانيته، ويوضح لنا أن التفكر في ظواهر الكون والحياة يؤدي إلى تعميق الإيمان بالله وزيادة الخشية منه على هدى وبصيرة. قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ

(*) دراسة منشورة في مجلة «التفاهم»، العدد 45، سلطنة عمان، مسقط، صيف 2014م/ 1435هـ، ص ص 253 - 280.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج].

ولما كان القرآن الكريم هو الأصل الأول للثوابت الإسلامية، فإن المسلمين مطالبون في كل زمان ومكان باستنهاض عزائمهم، وشحذ عقولهم، نحو فهمه فهمًا يغيّر من حياتهم إلى الأفضل دائمًا، ويضعهم في موضع يمكنهم من نشر لواء الإسلام في كل ربوع الأرض، باعتباره منهجًا ربانيًّا متكاملًا يحمل للناس كل ما فيه فلاحهم في الدنيا والآخرة. ولقد ظهرت مباحث في علوم القرآن تُعنى بجوانب إعجازه التي لا تحصى، ومنها إعجازه العلمي الذي يظهر من تفسير آياته الكريمة في ضوء ما يستحدث دائمًا من حقائق علمية، فالإعجاز العلمي حالة خاصة من التفسير العلمي عندما يشير القرآن الكريم إلى حقيقة علمية كان من الصعب إدراكها وقت نزوله بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ، مما يظهر صدقه فيما بلغ عن ربّ العزة عَزَّوَجَلَّ.

ووصف التفسير أو الإعجاز بأنه «علمي» نسبة إلى العلم التجريبي (الكوني) المعني بدراسة الظواهر المطردة في الآفاق وفي الأنفس، وصولًا إلى القوانين التي تفسر سلوك هذه الظواهر، وعلل حدوثها بحيث تنكشف حقائق الأشياء انكشافًا تامًّا، وتتجلى حقيقة الحقائق واضحة ساطعة، متمثلة في وجود الخالق الواحد جَلَّوَعَلَا، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ...﴾ [فصلت: 53].

وهنا يلزم التنبيه إلى أمرين مهمين:

الأمر الأول، يتعلق بكلمة «إعجاز» ذاتها، حيث إن دلالتها غير دقيقة ولا سديدة، كما أنها توحي عند سماعها أو قراءتها بحصر اهتمامات المجتهد في فهم القرآن الكريم وتفسيره في دائرة بمعناه الاصطلاحي فحسب. والواقع أن جهود المهتمين بهذا المجال ليس من الضروري أن تتوصل إلى نتائج صحيحة دائمًا تدخل تحت مفهوم «الإعجاز العلمي»، باعتبار أن ما ينتهون إليه اجتهادات في خدمة تفسير القرآن الكريم وفهم معانيه.

وأما **الأمر الثاني** الذي ينبغي التنبيه إليه فيتعلق بوصف «العلمية» الذي يراد به العلم التجريبي (الكوني) في موضوعه وطرائقه على ما هو شائع على ألسنة كثير من المفكرين، بصرف النظر عن صحة هذا الشائع وخطئه؛ ذلك أن الاقتصار على معنى العلم التجريبي

فحسب فيه تضييق للواسع، فضلًا عن أن فيه تسليمًا بالرأي المغالط في الثقافة الغربية، وإغفالاً للمدلول الواسع والشامل في الثقافة العربية الإسلامية، حيث إن الأصل في معنى «العلم» عند العرب هو الإدراك الصحيح لحقائق الأشياء، وتصنيف العلوم - إلى دينية أو دنيوية، أو نقلية وعقلية، أو شرعية وطبيعية، أو نظرية وتجريبية، أو غير ذلك - هو تصنيف يعتمد على الصفات المعبرة عن موضوعات العلم، أو مصادره، أو الطرائق التي يتم تحصيله بها بحسب تناسبها وقرب بعضها من بعض. لكن هذين الأمرين - على أهميتهما - لم يحجبا عن الأذهان المراد الحقيقي من مصطلحي «التفسير العلمي» و«الإعجاز العلمي» الشائعين والمعروفين على الألسنة، حيث لا مشاحة في الاصطلاح كما يقولون.

موقع التفسير العلمي من بقية التفاسير

«التفسير» في اللغة: مصدر الفعل «فَسَّرَ»، ومعناه: التوضيح والكشف، فيقال: فسَّر الشيءَ: وضَّحه، وفسَّر آيات القرآن الكريم: شرحها ووضح ما تنطوي عليه من معانٍ. وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان]؛ أي أحسن إيضاحًا وتفصيلًا.

والتفسير في اصطلاح علماء الشريعة الإسلامية هو: توضيح معنى الآية، وشأنها، وقصتها، والسبب الذي نزلت فيه، بلفظ يدلُّ عليه دلالة ظاهرة. ذكر الزرقاني في «مناهل العرفان» أنه: علم يبحث فيه عن القرآن الكريم، من حيث دلالته على مراد الله - تعالى - بقدر الطاقة البشرية.

وقد مرّ علم التفسير في نشأته وتطوره بمرحلتين رئيسيتين هما: مرحلة ما قبل التدوين في عهد النبي ﷺ وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفي عهد التابعين، ثم مرحلة التدوين التي بدأت في أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية، وقد استمرت حتى العصر الحاضر.

وظهرت اتجاهات متعددة في التفسير أهمها: التفسير بالمأثور عن النبي ﷺ، أو عن الصحابة والتابعين، والتفسير الفقهي الذي يتناول «آيات الأحكام» الشرعية العلمية بالتفسير، مع عرض مذاهب الفقهاء المختلفة، والترجيح بينها، والتفسير الإشاري أو الصوفي، ويراد به تأويل آيات القرآن الكريم على غير ما يظهر منها، بمقتضى إشارات خفية، تظهر لأرباب

السلوك، ولا تتعارض مع الظواهر المستقاة من الآيات، والتفسير بالرأي أو التفسير العقلي الذي يعتمد الرأي والاجتهاد بعد استجماع شروطهما، وقد اختلف في جواز هذا اللون من التفسير، فأجازه فريق من العلماء، ومنعه آخرون. هذا بالإضافة إلى ألوان أخرى من التفاسير، منها التفسير الأدبي البياني، والتفسير الأدبي الاجتماعي، والتفسير الموضوعي، وغيرها[1].

أما التفسير العلمي فيراد به تفسير الآيات الكونية المذكورة في القرآن الكريم في ضوء معطيات العلم الحديث، على وجه يظهر به إعجاز القرآن الكريم، ويدلُّ على مصدره الإلهي، ويكشف عن صلاحيته لكل زمان ومكان.

فقد كان العرب الذين نزل فيهم القرآن يفهمون مثل هذه الآيات على حسب ظاهر ألفاظها، وما تعبر به عن قدرة الخالق سبحانه. وهذا يبرر لنا صدق الجهود المشكورة التي بذلها أسلافنا لاستجلاء بعض معاني آيات القرآن الكريم في ضوء المعارف العلمية المتاحة في عصرهم، والتي ظهر خطؤها فيما بعد عندما وصل العلم باكتشافاته إلى مرحلة أرقى. فتذكر المراجع أن أحد الفلكيين كان يقرأ كتاب «المجسطي» في الفلك لبطليموس على أستاذه الأبهري، وكتاب «المجسطي» هذا يتضمن فصولًا عن هيئة الكون كما تصوره فلاسفة الإغريق، وفيه تقع الأرض في مركز العالم، وتدور حولها الشمس والكواكب المعروفة آنذاك، وهو غير ما نعرفه في عصرنا من أن الشمس هي التي تدور حولها الأرض وبقية الكواكب، والمجموعة الشمسية تشغل حيزًا صغيرًا جدًّا على حافة طريق لبني يحتوي على بلايين النجوم. فبينما كان العالم الفلكي يقرأ على الأبهري كتاب «المجسطي» ذات يوم، دخل عليهما أحد الفقهاء وسألهما عما يقرآنه، فقال الأبهري إنه يحاول أن يفهم معنى آية من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة ق]. ويقول الفخر الرازي معلقًا على هذه الرواية: «ولقد صدق الأبهري فيما قال، فإن كل من كان أكثر توغلًا في بحار مخلوقات الله، كان أكثر علمًا بجلال الله وعظمته».

ومع تقدم الزمن، ازدادت معارف المسلمين بالعلوم الكونية، واتجه بعض العلماء إلى

(1) عبد الله شحاتة، دائرة سفير للمعارف الإسلامية، العددان 43 - 44، مادة «التفسير»؛ د. جمال مصطفى النجار، التفسير والمفسرون، الموسوعة القرآنية المتخصصة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة 1423 هـ/ 2002م.

استخدام تلك المعارف في تفسير الآيات القرآنية التي تتعلق بالكونيات، واستمر الانتصار لهذا الاتجاه، حتى انتشر ذلك وتوسع في العصر الحديث، لما جدَّ من تقدم هائل في العلوم الكونية.

وقد لقي ذلك الاتجاه قديمًا وحديثًا مؤيدين ومعارضين، وتتمثل أدلة المؤيدين في دعوة القرآن إلى تدبر ما في الكون من آيات دالة على قدرة الخالق سبحانه، على حين تتمثل أدلة المعارضين في أن القرآن الكريم كتاب دعوة وهداية، وليس كتاب علم وكونيات، نبحث فيه عن معادلات رياضية أو نظريات هندسية. وهذا - ولا شك - قول حق؛ ولكنه ليس كل الحق، وذلك أن الله قد شاءت حكمته أن يكون إرشاد الناس وهدايتهم بوسائل متنوعة، وهو عَزَّوَجَلَّ خبير بعباده، فهو تارةً يخاطبهم بما يمسّ قلوبهم مسًّا رقيقًا، وتارةً أخرى يقرع عقولهم قرعًا قويًّا شديدًا. وكان من أبرز ما جلى به أبصارهم وأنار بصائرهم حضه إياهم على التدبر في آيات خلقه، وهذا ما شجع فريق المؤيدين من العلماء الذين يرون في التفسير العلمي للقرآن الكريم - وما يتضمنه من إعجاز علمي أيضًا - فتحًا جديدًا ومتجددًا في طريق الدعوة إلى الله وهداية الناس إلى الإسلام الحنيف.

وقد أضاف الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه «التفكير فريضة إسلامية»[1] ما يوضح معنى «الإعجاز العلمي» كحالة خاصة من «التفسير العلمي» للقرآن الكريم، فذكر أن هناك نوعين للمعجزة ينبغي التمييز بينهما؛ كي نطلب المعجزة التي يجب أن تطلب، ونتورع عن طلب المعجزة التي لا تجدي أحدًا من العقلاء.

أما النوع الأول فهي المعجزة التي تتجه إلى العقل، وهي موجودة يلتقي بها من يريدها حيثما التفت إليها، متمثلة في الاطراد المنتظم لظواهر الكون والحياة التي لا تتبدل ولا تتحول. وأما النوع الثاني فهي المعجزة التي تكون من خوارق العادات، فهي التي تدهش العقل وتضطره بالإفحام القاهر إلى التسليم، وهي ليست بحاجة إلى قدرة أعظم من القدرة التي نشهد من بدائعها ما يتكرر أمامنا كل يوم وكل ساعة.

والعالم الحق أحرى أن يعرف موضع العجب فيما يشاهده من سنن الله الكونية المألوفة في دوران الأفلاك، وخصائص المادة، وسلوك الكائنات والظاهرات الطبيعية، فليست أُلفته لها

(1) عباس محمود العقاد، **التفكير فريضة إسلامية**، منشورات المكتبة العصرية، بريوت - صيدا (د. ت).

مما يصح أن يبطل العجب منها، ومن قال هذا فهو هازل مستخف بالمعجزة التي تخاطب العقل وتستثير ملكاته، وهو أيضًا عاجز عن أن يجد في هذه المعجزة يد العناية الإلهية التي تسير حركة الكون والحياة.

ومن أسف أن يغيب مثل هذا التمييز الواضح بين نوعي المعجزة عن كثير من الباحثين الذين يقفون بتفكيرهم عند حد التفسير العلمي للظاهرة الكونية، دون أن ينبهوا إلى الإعجاز في خلقها، أو الذين يقحمون أنفسهم فيما لا يدركه العقل البشري المحدود في الغيبيات أو خوارق العادات التي لا تخضع للنواميس الطبيعية ولا للتجارب البشرية.

كذلك أدى غياب هذا التمييز الواضح بين نوعي المعجزة إلى الخلط أحيانًا بين «الإعجاز العلمي» الذي يقصد به سبق القرآن الكريم إلى الإخبار بحقيقة كونية قبل أن يكتشفها العلم التجريبي، وبين «التفسير العلمي» الذي يراد به الكشف عن معانٍ جديدة للآية القرآنية، أو الحديث النبوي، في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية، بمعنى أن تكون هذه العلوم في خدمة تفسير القرآن والسُّنَّة، مثلما خدمته علوم اللغة والأصول والفقه وغيرها من مجالات العلوم الشرعية.

ومن جميل الذكر أن نزيد هذا المعنى إيضاحًا بما جاء في كتاب «الكشف عن مناهج الأدلة» لابن رشد في طريقة الاستدلال التي يراها أبسط وأسهل وأكثر يقينًا في الدلالة على الله[1]، حيث يقول: إنها الطريق التي نبَّه الكتاب العزيز عليها، ودعا الكل من بابها، إذا استقرئ الكتاب العزيز، وُجدت تنحصر في جنسين؛ أحدهما: طريق الوقوف على العناية بالإنسان، وخلق جميع الموجودات من أجله، ولْنُسمِّ هذا «طريق العناية»، والطريقة الثانية ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات، مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية، والعقل، ولنسمّ هذه «دليل الاختراع».

فأما الطريقة الأولى فتبنى على أصلين؛ أحدهما: أن جميع الموجودات التي ها هنا موافقة لوجود الإنسان، والأصل الثاني: أن هذه الموافقة هي - ضرورة - من قِبَلِ فاعل قاصد لذلك،

(1) عن الشيخ نديم الجسر، **قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والدين**، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1969م. انظر عرضًا موجزًا لهذا الكتاب، القيم في القسم الثاني من كتابنا الحالي.

مريد؛ إذ لا يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق (يعني بالمصادفة). فأما كونها موافقة لوجود الإنسان، فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان، وكذلك موافقة الأزمنة (أي الفصول) الأربعة له. والنبات والجماد، وجزئيات كثيرة من الأمطار والأنهار والبحار، وبالجملة الأرض والماء والنار (والهواء)، وكذلك أيضًا تظهر العناية في أعضاء البدن، وأعضاء الحيوان، أعني كونها موافقة لحياته ووجوده. وبالجملة فمعرفة منافع الموجودات داخلة في هذا الجنس، ولذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يبحث عن منافع الموجودات.

وأما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله، ووجود النبات كله، ووجود السماوات... وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات، ولذلك كان واجبًا على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء؛ ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات؛ لأن من لم يعرف حقيقة الشيء، لم يعرف حقيقة الاختراع، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: 185].

ثم يقول ابن رشد: «وتبين أن هاتين الطريقتين، يقصد دلالة العناية ودلالة الاختراع، هما بأعيانهما طريقة الخواص، وأعني بالخواص العلماء، وطريقة الجمهور، وإنما الاختلاف في المعرفتين في التفصيل: أن الجمهور يقتصرون - من معرفة العناية والاختراع - على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس، وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس، ما يدرك بالبرهان...»[1].

هكذا اهتدى الأسبقون إلى تفاوت الناس في فهمهم للقرآن الكريم، ونقل عن الراغب الأصفهاني من كتابه «مقدمة التفسير» ما نصه: «ثم إن القرآن وإن كان في الحقيقة هداية للبرية؛ فإنهم لن يتساووا في معرفته، وإنما يحظون به بحسب درجاتهم واختلاف أحوالهم، فالبلغاء تَعْرِف من فصاحته، والفقهاء من أحكامه، والمتكلمون من براهينه العقلية، وأهل الآثار من قصصه ما يجهله غير المختص بفنه. وقد علم أن الإنسان بقدر ما يكتسب من قوته في العلم تتزايد معرفته بغوامض معانيه». ثم يقول الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد - رحمه الله -

(1) المرجع السابق.

معلقًا: «ولعله من فضول القول أن نقول بعدما قدمناه: إن علماء العلوم الطبيعية ليسوا بدعًا بين هؤلاء الذين ذكرهم الأصفهاني... وأعتقد أنه ينبغي على المتمكنين من العلوم الطبيعية أن يتقدموا لينالوا شرف الإسهام في خدمة تفسير القرآن الكريم في هذا الزمان، و إنما بضوابط دقيقة ومنهاج قويم»[1].

التفسير العلمي ليس تفسيرا بالرأي

التفسير العلمي إذن - بما يتضمنه من إعجاز قرآني - ليس من قبيل ما أسماه السابقون «التفسير بالرأي»، واختلفوا فيه اختلافًا كبيرًا، وانتهى فيه بعضهم إلى الإباحة بشروط، و إنما هو من قبيل ما نجده واضحًا في عدد من التفاسير الشهيرة للآلوسي والطبري والبيضاوي وابن كثير، وغيرهم، على ألا يكون المقصود منه إقحام حقائق العلم على التفسير إقحامًا، بافتعال مناسبات حشرها، أو بالإسراف في التأويل ولَيّ ألفاظ القرآن الكريم وآياته للجمع بينه وبين حقيقة علمية أو فرض لم يزل في حاجة إلى تمحيص، أو بالتهجم على الغيبيات وتصويرها كما يزينها الخيال أو الهوى. ومن أسف أن هذا كله قد حدث فأساء إلى الهدف النبيل، وأثار ثائرة الغيورين على كتاب الله أحيانًا إلى درجة التطرف في رفض أي اجتهاد مقبول ومعقول في خدمة علم التفسير الشريف، وضاعف من تيار المعارضين عمومًا لربط العلم وحقائقه بالقرآن وآياته.

ولعل جزءًا من أسباب الرفض التام لوضع العلم في خدمة تفسير القرآن الكريم وتجلية معانيه يعود إلى خطأ شائع في فهم بعضهم لما يسمى «بحقائق العلم» على أنها ليست سوى فروض ونظريات لم يثبت العلم ذاته يقينها النهائي. وهذا القول على إطلاقه - هكذا - لا يقل خطأ عمّا يقوله آخرون من أن العلم الطبيعي هو المصدر الوحيد للحقيقة، وكل ما سواه وهْم باطل لا يمت إلى الواقع بصلة. والقائلون بهذا وذاك يخلطون بين مفاهيم من قبيل «القانون العلمي» و«الحقيقة العلمية» و«النظرية العلمية» و«الفرض العلمي» و«الموضوعية العلمية»، وغير ذلك مما يستخدم في وصف لغة العلوم الكونية وتحليلها؛ نظرًا لتداخل مدلولات هذه المفاهيم إلى الحد الذي يتعذر معه وضع حدود فاصلة بين استخداماتها.

(1) عبد الحافظ حلمي محمد، **العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم**، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع، الكويت 1982.

من ناحية أخرى، ربما يستند بعض المعارضين للتفسير العلمي للقرآن والسُّنَّة إلى واقع العلم ذاته عندما يبدو لهم كما لو كان قد تخلى في بعض قوانينه الجديدة عن مفاهيم أساسية قامت عليها قوانينه القديمة، مما يعني - في اعتقادهم - أن نتائج العلم غير يقينية، وأن العلماء عرضة للخطأ والقصور. لكن هذا ينبغي ألا يعني أن القوانين العلمية التي يتوصل إليها الباحثون بعد اختبار تجريبي دقيق غير صحيحة. فقوانين «إسحاق نيوتن» عن «الجاذبية» - مثلًا - تعبّر عن حقائق موضوعية بأعلى درجة ممكنة من الصدق واليقين؛ لأننا اختبرنا صحتها أمام أعيننا في عالم الواقع، وأفدنا من نتائجها في إنجاز تقنيات متقدمة ساعدتنا على ارتياد أجواز الفضاء، واختراع أقمار صناعية تدور حول الأرض مثلما يدور القمر الطبيعي، وأكدت تصوراتنا عن كروية الأرض ودورانها، وجريان الشمس لمستقر لها، وحركات الكواكب والأقمار في أفلاكها. ولم يبطل هذه الحقائق ما ظهر حديثًا من نظريات علمية تتعلق بالنسبية، والكم، والاحتمالات، وغيرها.

وهكذا نجد أن الحقيقة الكونية التي يعرف رجال العلم معناها وحدودها لا تبطل مع الزمن، ولكنها قد تزداد مع جهود العلماء المتتابعة تفصيلًا ووضوحًا وجلاء. كل ما في الأمر أن القوانين العلمية تعبّر عادة عن حقائق علمية محدودة، وليس من الصواب أبدًا أن تعدّ هذه الحقائق الجزئية دليلًا على قصور العلم أو منقصة فيه، فطبيعة المعرفة العلمية تتميز بالتنامي والاطراد في اكتشاف القوانين التي تلقي الضوء شيئًا فشيئًا على حقائق الواقع الثابت في الكون بعد أن أشارت إليها آيات من القرآن العظيم، ولهذا فإننا نقول: إن التفسير العلمي للقرآن ليس تفسيرًا بالرأي (العقلي الذاتي)؛ ولكنه تفسير برأي (حقائق) العلم. وبناءً عليه لا يرى بعض العلماء المعاصرين[1] مانعًا من الاجتهاد في فهم ما لم يستقر عليه رأي المتأولين، أو ما لم ينته فيه العلم إلى رأي قاطع، ما دمنا لا نمسّ جوهر التفسير، أو نجزم بأن هذا هو المعنى المقصود، مسلّمين بأن الله أعلم بمراده، فلماذا لا نقدم غاية ما يبلغه اجتهادنا وترتاح إليه نفوسنا وعقولنا في ضوء فهمنا لنشأة الكون، وهي قضية غيبية أَمَرَ القرآن بالبحث فيها للوقوف على كيفية فتق السماوات والأرض، وفي ضوء ما أخبر به العلم عن أضواء الكواكب والنجوم، ونحو ذلك. إنها ليست أكثر من خدمة علمية للتفاسير، تضم إليها أو تنفصل عنها[2].

(1) عبد الحافظ حلمي محمد، المرجع السابق.

(2) أحمد فؤاد باشا، **كلمات ربي وآياته في القرآن والكون** - معجم موسوعي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1435هـ/ 2014م.

منهج التفسير العلمي للقرآن الكريم

إذا كانت قضية الربط بين العلوم الكونية والقرآن الكريم تتعرض لنقد لاذع بسبب إفراط بعض المتحمسين أو تفريط غيرهم من الرافضين والمعارضين، وأمام الحاجة الماسة إلى هذا النوع من الدراسات القرآنية لتنشيط حركة الدعوة الإسلامية المعاصرة؛ فإنه أصبح ضروريًّا أن يكون لذلك الاجتهاد منهاج، وأن يوضع للمجتهد ضوابط وشروط، وأن ينبه إلى مزالق الخطأ وموارد الزلل وكبوات الاجتهاد، ولن نفترض أبدًا سوء النية أو التواء القصد عند ذلك النفر من الباحثين الدائبين في هذا الاتجاه؛ إذ لا ينبغي لمسلم أن يسيء بأخيه ظنًّا، إنما عليه أن يذكّر بعظم إثم التكلم في كتاب الله بغير علم، وأن ينبه إلى المحاذير والأخطار التي قد تتوالد من فكرة، أو رأي، أو تصور أراد به صاحبه خيرًا؛ ولكنه انتهى إلى غير ذلك.

ويمكن إيجاز الإطار العام الذي توصل إليه عدد من الباحثين المعاصرين في منهج التفسير العلمي أو الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسُّنَّة النبوية المشرفة في النقاط التالية[1]:

أولًا: علم الله - تعالى - هو العلم الشامل المحيط الذي لا يعتريه خطأ ولا يشوبه نقص، وعلم الإنسان محدود، يقبل الازدياد، ومعرض للخطأ. ولقد نزلت نصوص الوحي بألفاظ جامعة تحيط بكل المعاني الصحيحة في مواضيعها، التي قد تتابع ظهورها جيلًا بعد جيل، وإذا جمعت نصوص الكتاب، والسُّنَّة الصحيحة، وجدت بعضها يكمل بعضها الآخر، فتتجلى بها الحقيقة، مع أن هذه النصوص قد نزلت مفرقة في الزمن، وفي مواضعها من الكتاب الكريم، وهذا لا يكون إلا من عند الله الذي يعلم السر في السماوات والأرض.

ومن ثم فإنه لا يوجد تعارض بين نصوص الوحي القاطعة التي تصف الكون وأسراره، على كثرتها، وبين الحقائق العلمية المكتشفة على وفرتها، فالحق لا يتعارض مع الحق، بل يوافقه ويشهد له. وإذا وقع تعارض في الظاهر، فلا بد أن هناك خللًا في اعتبار ما هو قطعي من الوحي أو العلم الكوني.

(1) أحمد فؤاد باشا، **رحيق العلم والإيمان**، دار الفكر العربي، القاهرة 1422 هـ/ 2002م.

ثانيًا: يجب التقيد بما تدلُّ عليه اللغة العربية، فلا بدَّ من:

1- مراعاة معاني المفردات كما كانت في اللغة إبان نزول الوحي، وكذلك مراعاة فقه استعمالها.

2- مراعاة القواعد النحوية ودلالاتها.

3- مراعاة القواعد البلاغية ودلالاتها، خصوصًا قاعدة ألا يخرج اللفظ من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية.

ثالثًا: يجب البعد عن التأويل في بيان التفسير العلمي للقرآن والسُّنَّة، أو على الأقل، لا ينبغي الإسراف في ذلك.

رابعًا: يجب ألا تجعل حقائق القرآن موضع نظر، بل تكون هي الأصل، فما وافقها قُبل، وما عارضها رُفض؛ ذلك أن المرجعية يجب أن تكون للحقائق القرآنية، وليس للعلم التجريبي؛ فالحقائق العلمية تحتكم إلى القرآن وتزكيه، فإن وافقته فبها ونعمت، وإن تعارضت معه رفضت؛ لأن النصّ القرآني وحي من الذي أحاط بكلِ شيء علمًا.

خامسًا: يجب على المجتهدين من العلماء أن يكونوا ملمين من علوم القرآن بالقدر الكافي، وأن يكون لديهم استعداد شخصي خاص يعززه رجوعهم إلى أمَّات كتب التفسير الأصلية رجوع المتعلم المتأني، لا اطّلاع القارئ العجول. فإذا تعذر عليهم هذا كان عليهم أن يسألوا أهل الذكر والاختصاص فيما لا يعلمون، فهذا أقل مقتضيات التحري والتحرز وعدم التورط في الكلام في كتاب الله بغير علم.

سادسًا: كذلك يجب على المجتهدين من الباحثين في التفسير العلمي للقرن الكريم والسُّنَّة المطهرة أن يكونوا على معرفة تامة بالظاهرة العلمية قيد البحث وتاريخ المصطلحات الفنية المتعلقة بها.

سابعًا: التفسير العلمي يقتضي تعاونًا تامًّا بين نفر من المهتمين في تخصصات علمية منوعة، من بينهم فقهاء اللغة وعلماء الدين الذين يقرون التزام القواعد المعروفة في أصول التفسير من الالتزام بما تفرضه حدود اللغة، وحدود الشريعة، والاحتياط الواجب الذي يلزم كل

ناظر في كتاب الإسلام الخالد الذي «لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه».

ومن أشهر التفاسير التي اهتمت بالجوانب العلمية في القرآن الكريم تفسيران؛ أحدهما: قديم، وهو «مفاتيح الغيب» للرازي (ت: 606 هـ/ 1209م)، والآخر: حديث، هو «تفسير الجواهر» للشيخ طنطاوي جوهري (ت: 1359هـ/ 1940م). كذلك أعدت لجان من الخبراء المعاصرين «المنتخب في تفسير القرآن الكريم»، إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، و«قاموس القرآن الكريم»، إصدار مؤسسة الكويت للتقدم العلمي. وتميّزت التعليقات العلمية في «المنتخب» بالإيجاز في هامش مستقل حتى لا تعطل استمرار القراءة في التفسير الأصلي، بينما جاءت التعليقات العلمية في «القاموس» بشيء من التفصيل لتيسير الفهم والإقناع.

وقد انتهيت هذا العام 1435هـ/ 2014م، بعون الله وتوفيقه، من إعداد معجم موسوعي بعنوان: «كلمات ربي وآياته في القرآن والكون»، إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة. ورتبتُ مداخله المختارة بألفاظها الواردة في القرآن الكريم، دون احتساب أداة التعريف، وعرضت بإيجاز لبيان معانيها اللغوية في السياق القرآني، وعدد مرات ورود اللفظ ومشتقاته في آيات القرآن الكريم، وأتبعت ذلك بتعليق علمي وثيق الاتصال باللفظ القرآني وسياقه، واستطردت فيه أحيانًا ليعين على الفهم الصحيح دون إغراق في التفاصيل والمصطلحات. وحرصت على أن يتضمن هذا التعليق العلمي بعض ما يتصل بالمدخل الرئيس من ألفاظ قرآنية ميزناها ببنط ثقيل (أسود)، مثال ذلك، مدخل (الرياح) يقود إلى: حاصب - ذاريات - رخاء - سموم - صرّ - صرصر - طيبة - عاتية - عاصف - لواقح - مبشرات - مرسلات - هواء. كذلك تضمن هذا العمل مقاربات علمية لعدد من المداخل المتعلقة ببعض التعاليم الإسلامية، والمقاصد الشرعية، والفروض التعبدية، مثل: استعمركم فيها - اقرأ - الصلاة - الصيام - علم - عمل - الفساد - قرآن الفجر - يتأملون - يتفكرون. ويؤمل لهذا العمل المتواضع أن يكون في خدمة تفسير القرآن الكريم، وأن يسهم في ترشيد الخطاب الدعوي المعاصر للتعريف بالإسلام والدفاع عنه(*).

(*) بدأت مجلة الأزهر الغراء منذ إصدار هذا المعجم الموسوعي في نشر محتوياته تباعًا في أعدادها الشهرية ليكون متاحًا لأكبر عدد ممكن من القراء.

نماذج للتفسير العلمي في أعمال المعاصرين

1- ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾

أقسم الحق جلَّ وعلا في هذه الآية الخامسة من سورة الشمس بالسماء، وبالقادر العظيم الذي رفعها وأحكم بناءها. وذكر الإمام محمد عبده في تفسير كلمة «بناها» أن الله «جعل كل كوكب من الكواكب منه (أي من الكون) بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك، وشد هذه الكواكب بعضها إلى بعض برباط الجاذبية العامة كما تربط أجزاء البناء الواحد بما يوضع بينها مما تتماسك به»[1].

وأضاف الدكتور محمد أحمد الغمراوي إلى ما ذكره الإمام محمد عبده عن الجاذبية العامة وأثرها في بناء السماء، مما نبه الله عباده إليه في آيات من كتابه، كل منها يدل على جانب من مميزاتها، لله فيه آية تهدي إليه سبحانه. وأوضحُ ما يميز بناء السماء من البنيان الأرضي هو تماسك أجزاء السماء على البعد بالجاذبية العامة من غير تماس، «وهذا أمر عجيب يدركه الفلكيون المحدثون ولا يدرون سرّه؛ إذْ ليس هو بالتجاذب الكهربي، ولا المغناطيسي، فهو جدير أن ينبه إليه في كتاب الله بالأسلوب الذي يعقله الناس في كل عصر، حتى إذا جاء عصر الفلك الحديث وأثبت هذه الظاهرة العجيبة، انطبق الكلم القرآني عليها كأنه ما نزل إلّا فيها»[2].

ولما كان لفظ السماء في اللغة العربية يطلق بوجه عام على النظام الكوني الذي فوقنا (أي فوق الأرض)، القريب منه والبعيد، فإن الدعوة القرآنية إلى تأمل بناء هذه السماوات فيها حث على إعمال العقل وتدبر آيات الكون ونواميسه للتعرف عليها عن طريق البحث العلمي السليم، ذلك أن سلامة هذا البناء الكوني شرط من شروط اتزانه واطراد سننه وقوانينه العاملة فيه وفق إرادة الله تعالى ومشيئته المطلقة، كما أن سلامة هذا البناء الكوني واستمرارها من دلائل القدرة الإلهية التي ترسخ الإيمان بالخالق الواحد - سبحانه وتعالى - فالقرآن الكريم

(1) الأستاذ محمد عبده، تفسير جزء عمَّ، القاهرة، كتاب الشعب، مطابع الشعب (د. ت).

(2) محمد أحمد الغمراوي، **الإسلام في عصر العلم، الرسالة والرسول والقرآن والإعجاز العلمي**، دار الإنسان، القاهرة 1411 هـ/ 1991م.

يكرر في خطابه للبشرية أن السماوات والأرض مخلوقة للإنسان، وأن رفعها وإحكام بنائها مهيأ ومحفوظ ومحروس ومزين على نحو ينسجم مع تحقيق مصالحنا ومعاشنا ومنفعتنا.

ومن جميل الذكر في هذا المعنى ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: 2]، حيث قال ابن عباس ومجاهد والحسن: لها عمد ولكن لا تُرى. ولو قيل: **«بغير عمد»** فحسب لكان ذلك نفيًا مطلقًا للعمد، مرئية وغير مرئية. والنفي المطلق يخالف الواقع الذي أودع الله تعالى فيه سننه ونواميسه وآياته التي وعد سبحانه بإظهارها مستقبلًا على أيدي من يشاء من عباده. والفعل المضارع في اللغة يشمل الحال والاستقبال، أو هو حال مستمر؛ لأن القرآن الكريم مخاطب به في كل عصر. وبهذا يكون المعنى القرآني العام أن الله - سبحانه وتعالى - خلق السماوات ورفعها وربط بين أجزائها وحفظ اتزانها في مواقعها التي قدرها لها بدعائم غير مرئية؛ لأن هذه الدعائم من شأنها وطبيعتها التي أوجدها الله عليها أنها لا تُرى أصلًا.

ويوافق هذا المعنى القرآني ما توصل إليه العلم الحديث من وجود قوى مجالية تعمل وفق قانون محدد على حفظ الاتزان الكوني وتماسك بنائه، والإمساك بالأجرام السماوية في أفلاكها المقدرة لها ومنعها من الانفراط في الفضاء، أو وقوع بعضها على بعض. ففي عام 1667م توصل العالم الإنجليزي «إسحاق نيوتن» إلى صياغة قوانين الحركة والجاذبية التي أمكن على أساسها تفسير حركة الكواكب حول الشمس، واكتشف أن قوة الجاذبية تعمل في كل الأشياء المادية، كبيرها وصغيرها، وإن لم يظهر إلا أثر الكبير في الصغير، ولولا هذه القوة غير المرئية التي تمتلكها كتلة الشمس الهائلة لاندفع كل كوكب إلى الخارج بعيدًا عن مكانه بتأثير ما يسمى «بالقوة الطاردة المركزية» الناشئة عن حركته الدورانية. فكأن قوة جذب الشمس لكوكب ما تعادل القوة الطاردة المركزية التي تعمل على إبعاد الكوكب عن مداره. وبالطريقة نفسها يمكن تفسير حركة الأقمار حول الكواكب.

وهكذا يقدم العلم لنا تصورًا معقولًا عن انتظام مكونات الكون الهائل في نظام بديع يحكم حركتها، ويمنع تصادمها رغم كثرتها، ويحفظ اتزانها واستقرارها في أفلاكها على نحو ما أخبر به القرآن الكريم في قول تعالى: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس]. وهنا ينبغي أن نلاحظ أن جميع الأجرام السماوية لا بد لها أن تتحرك

بسرعات محددة لتسلك مساراتها المحددة التي قدرها الله - تعالى - لها في فضاء السماوات، فهو وحده القادر على إكسابها هذه السرعات بالقدر المطلوب الذي يجعل من السماوات بناء محكمًا، لبناته أجرام السماوات والأرض، والقوة الرابطة بينها - وهي قوة الجاذبية والطرد المركزي - هي أشبه بالمواد اللاصقة والماسكة (الإسمنت والملاط) للبنات البناء المشيد.

وقد أكدت التجارب العلمية صحة قانون التجاذب الكوني بين جميع الكتل المادية، وقام على أساسه الكثير من الكشوف والاختراعات التي أفادت منها البشرية في مختلف المجالات، وخاصة في مجال تطوير أبحاث الفضاء وإطلاق الأقمار الاصطناعية التي تدور حول الأرض في مدارات مختلفة بحسب الأغراض التي صنعت من أجلها.

وبالرغم من هذا فإن العقل البشري لا يزال عاجزًا عن الوصول إلى الأسرار الحقيقية لذلك النوع من القوى المجالية، أو الدعائم غير المرئية، التي يقوم عليها بناء الكون، وهو ما عبَّر عنه «إسحاق نيوتن» نفسه - صاحب قانون الجاذبية - بقوله: «إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس وهي تجذب مادة أخرى دون أي رابط بينهما»!!

لكنها إحدى آيات الله في الآفاق، ولا يدرك عظمتها إلا أولو الألباب الموصلون بخالقهم تعالى ذكره.

2- ﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ﴾

سجَر يَسْجُرُ سَجْرًا، وسجورًا: امتلأ. وسجَّر: سجر

وسجرَ الإناء ونحوه: ملأه. وسجر التنّور: ملأه وقودًا وأحماه، والمسجور: الممتلئ. والمسجور: المتقد (المعجم الوسيط).

وقد وردت كلمة «المسجور» في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ ﴾ [الطور].

والبحر في اللغة العربية اسم يطلق على البحر الواسع المعروف، ويطلق أيضًا على النهر، برغم اختلاف طبيعة مياههما من حيث الكثافة ودرجة الملوحة. أما «المسجور» فهي صفة تعددت فيها أقوال المفسرين، ومعناها: المملوء، قيل: المملوء ماء، وهو الظاهر، وقيل: المملوء

نـارًا عند انتهاء الدنيا، والرأي الأول أظهر وأوضح؟ وقيل: هو اليابس الذي ذهب ماؤه، وقيل: إنـه البحـر الفارغ، وهو مـن الأضداد، وقيـل: إنه المختلط عذبـه بملحه، وقيـل: إنه الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها.

والقول الراجح عند الطبري أنه المملوء، ورغم أنه يرى أن الأوْلى بتفسير معنى «المسجور» في اللغـة: هـو الموقد؛ إلا أنه لم يرجح هذا القول؛ لأنـه يرى أن البحر غير موقد. فلما لم يكن البحر موقدًا انتقل إلى المعنى الثاني، وهو المملوء، ولو ثبت له أن البحر موقد لقال به ورجحه.

فقد قال الطبري - رحمه الله - «وأوْلى الأقوال في ذلك عندي بالصواب: قول من قال: معناه البحـر المملوء المجموع ماؤه بعضه في بعض، وذلك أن الأغلب من معاني «السـجر» «الإيقاد، كما يقال: سـجرت التنور بمعنى أوقدت، أو الامتلاء على ما وصفت،... فإذا كان ذلك الأغلب من معاني السجر، وكان البحر غير موقد اليوم، وكان الله - تعالى ذكره - قد وصفه بأنه مسجور فبطل عنه إحدى الصفتين وهو الإيقاد؛ صحت الصفة الأخرى التي هي له اليوم وهو الامتلاء؛ لأنه كل وقت ممتلئ».

وجاء في تفسير الجلالين لقوله تعالى في الكفار: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر: 72]؛ أي توقد تحتهم. (يسجرون: يوقدون).

ومن خلال النظر في كتب التفسير، ومقارنة أقوال المفسرين بالاكتشافات العلمية الحديثة، يمكن ترجيح أحد المعاني غير الذي رجحه جمهور المفسرين، وهو أن يكون «المسجور» بمعنى: الموقـد. وقد دلت عليه كشـوف العلماء حديثًـا عندما رأوا بأعينهم نارًا تخـرج من قاع البحر الأحمر من شـماله إلى جنوبه، وفي قيعان بحار أخرى كثيرة. ذلك أن الغلاف الصخري للأرض التي نعيش عليها ممزق بشـبكة هائلة من الصدوع لمئات من الكيلومترات طولًا وعرضًا، بعمق يـتراوح ما بين 65 و150 كيلومتر طولًا وعرضًا. ومن هذه الصـدوع تندلع الصهارة الصخرية التي «تسجر» البحر بحرارتها العالية، فلا الماء على كثرته يستطيع أن يطفئ جذوة هذه الحرارة الملتهبة، ولا هذه الصهارة على ارتفاع درجة حرارتها التي تزيد على ألف درجة مئوية قادرة أن تبخـر هـذا الماء. وتأكد للعلماء أن البراكين في قاع المحيطات أكثر عددًا، وأعنف نشـاطًا من البراكين على سطح اليابسة.

بذلك تبيّن لهم أن الحمم البركانية، أو اللابا، تكون شـديدة الحرارة، ودون اشتعال مباشر؛ نظرًا لعدم وجود الأكسجين في مياه قاع البحر، ولا توجد كلمة لوصف هذا يمكن أن تحل محل وصف «المسجور».

ولهذا الصهير الصاعد في قاع البحر (المحيط) المسـجور (الموقد) دور أسـاسي في تشـكيل سطح الأرض وتضاريسها، حيث إنه ينشأ لتكوين قاع المحيط من خام «البيريدوتيت» المنصهر جزئيًّا بالغلاف الوهن للأرض. وقد لا يزيد عمق مصدر هذا الصهر عن 35 كيلومترًا تحت قاع المحيـط بنطاق التصدع. ولأن الصهير هنا عبارة عن سـائل ذي كثافة أقل من الصخور الصلبة حوله، فإنه يتحرك إلى أعلى ببطء حيث يتجمع في خزانات ضخمة على عمق بضعة كيلومترات تحت قمة مرتفعات وسـط المحيط، وانجذاب الألواح المحيطـة أو دفع بعضها بعيدًا عن بعض يخرج الصهير خلال تشققات القشرة الأرضية المحيطية. ومع حصول كل فورة بركانية يعتقد أن الصهير المبدئي الذي هو على صورة سائل ينتشر فوق نطاق الصدع في شكل رقائق على مساحات شاسـعة. وتعمل التشـققات على قطع هذه الألواح لتسـمح بخروج دفعات جديدة من الصهير الـذي بدوره يكوّن طبقات أخرى تعلـو الطبقات الأولى. وبعد ذلـك، وفي مرحلة متأخرة من هذه الدورة، يبرد الصهير بالخزان القريب من قاع المحيط ويغلظ قوامه لتخرج دفعات أقصر من الأولى مكونة تشكيلات تشبه الوسائد، وإذا ما كان معدل خروج الصهير كافيًا فقد تعمل وسـائد اللابا (الحمم) على بناء روابٍ بحجم البراكـين. وفي مرحلة متقدمة تنقطع هذه الروابي عن مصادرها مبتعدة عن قمة المرتفعات بواسطة انفراج قاع المحيط.

أمـا الصهير الذي يأخـذ طريقه إلى أعلى فإنه يـبرد ويتبلور عند أعـماق كبيرة ليكون ما يسـمى بصخور «الجابرو»، وبدراسـة هذه المركبات تم التعرف بالتدريج على التاريخ المعقد لتكوين قاع المحيط، وقد ساعدت هذه الدراسات على إماطة اللثام عن تواجد وتوزيع بعض رسـوبيات المعادن ذات الأهمية الاقتصادية. فتبارك الحكيم العليم الذي أقسـم بإحدى صفات البحر لبيان أهميتها والحث على معرفة حكمتها، باعتبارها من المقومات غير المباشرة لاستقرار الكرة الأرضية واسـتمرار الحياة عليها. وهكذا يساعد اكتشـاف الحقائق العلمية على ترجيح الأغلب من معاني «السـجر»، وهو الإيقاد، ويثبت البحث العلمي روعة القسم الإلهي بالبحر المسجور وإمكانية اجتماع الماء مع النار، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم.

كما تجدر الإشارة إلى أن إثبات العلم لأحد معاني السجر لا ينسخ معنى «الامتلاء» أو «المنع والكف عن الأرض»، ولكن السجر بمعنى الإيقاد يوافق مرحلة معرفية أكثر تقدمًا. مما يدل على أن القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد أسراره، ولا يخلق على كثرة الرد، فألفاظه وعباراته متجددة المعاني.

3- ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾

قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء]. تذكر كتب التفسير أن قرآن الفجر في هذه الآية الكريمة هي صلاة الفجر التي تشهدها الملائكة، وسميت قرآنًا لأن من أركانها قراءة القرآن، كما سُميت مشهودة لبيان فضلها وعظيم شأنها. وكبير أجرها؛ فهي في وقت يصعب على الإنسان القيام فيه من نومه الهنيء ودفء فراشه المريح، ولكن المؤمنين تتجافى جنوبهم عن المضاجع اللينة ويستيقظون في أعماق الليل متقربين لخالقهم بالدعاء والصلاة خوفًا وطمعًا، كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [السجدة]. وفي قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان]، وكذلك في قوله ترغيبًا في التهجد: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ [المزمل]، وناشئة الليل هي القيام بعد النوم.

وسميت صلاة الفجر مشهودة كذلك؛ لأنها في وقت يكون الإنسان فيه على أحسن حال بعد نومه الليل وراحة بدنه وعقله وأعصابه وسمعه وبصره من متاعب النهار ومشاغل الحياة، فالإنسان يستعيد في وقت النوم قواه البدنية والعقلية والعصبية، فيصفو عقله وتهدأ أعصابه وتتجدد خلايا بدنه، فيتجدد نشاطه وحيويته بعد ما كف لفترة مناسبة عن الحركة والتفكير، وقضى الليل في هدوء وسكون. ولا شك في أن الذهن المستريح يكون أكثر استعدادًا للفهم والخشوع من الذهن المرهق بالعمل، وليس من المعقول أن تكون حال العقل والجسم قبل النوم كالحال بعد الاستغراق في نوم عميق طويل.

من ناحية أخرى، تحث آية: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ على تنظيم الحياة الإسلامية بالمحافظة على الوقت والتبكير، فيبدأ العمل بصدر منشرح وعزم مكتمل، وإنه لمن الغفلة أن يألف أقوام

النوم حتى الضحى فتطلع عليهم الشمس وهم يغطون في نومهم، على حين تطلع على آخرين وهم منهمكون في سعيهم من أجل معاشهم ورزقهم، وقد قال رسول الله ﷺ **«اللهم بارك لأمتي في بكورهم»** [أخرجه أحمد في المسند 3/ 416].

ويأتي دور العلم الحديث ليلقي بعض الضوء على الإعجاز القرآني في دعوته إلى الاستيقاظ المبكر، فيبين جانبًا من الفوائد التي يجنيها الإنسان بيقظة الفجر، ويكشف عن المزيد من معنى آية كريمة حجبه أولًا ذلك النطاق العلمي الضئيل المعروف عند عرب الجاهلية، وما تكذيب الكفار للقرآن وقت نزوله إلا لأنهم اعتزوا بما علموا، وما أتفه علمهم آنذاك، فعدّوا كذبًا كل ما لم يتفق مع علمهم، فشهر القرآن الكريم بجهلهم، وعاب ذلك عليهم في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ [يونس: 39].

ويمكن إجمال رأي العلم في بيان فوائد يقظة الفجر وبركة البكور فيما يأتي:

أ- تكون أعلى نسبة لغاز الأوزون في الجو عند الفجر، وتقل هذه النسبة تدريجيًا حتى تضمحل عند طلوع الشمس. ولهذا الغاز - في حدود النسبة الطبيعية المقدرة له - تأثير مفيد للجهاز العصبي، وهو كذلك منشط للعمل الفكري والعضلي، بحيث يجعل الإنسان في الصباح الباكر في ذروة نشاطه الفكري والعضلي، ولعل الإنسان قد استطاع بخبرته العملية اليومية أن يستشعر نشوة لا مثيل لها عندما يستنشق نسيم الفجر العليل.

ب- تكون نسبة الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس أكبر ما يمكن عند الشروق، وهي الأشعة التي تحث الجلد على تكوين فيتامين (د) اللازم لنمو العظام وتقويتها. والاستيقاظ الباكر يتيح للإنسان الفائدة القصوى من هذه الأشعة بالاستعداد لاستقبالها، ناهيك عن منظر شروق الشمس ذاته وما يبعثه لون الأشعة المائل إلى الحمرة من إحساس جميل في النفس.

ج- تبيّن أن النوم على وتيرة واحدة لساعات طويلة يعرض الإنسان للإصابة بأمراض القلب؛ لأن النوم ما هو إلا حالة سكون يؤدي استمرارها طويلًا إلى ترسيب المواد الذهنية على جدران الأوعية الشريانية، ولا شك أن الاستيقاظ الباكر وقطع النوم الطويل فيه وقاية للإنسان من أمراض أوعية القلب.

د- من الثابت علميًّا أن أعلى نسبة للكورتيزون في الدم تكون وقت الصباح، وأقل نسبة تكون في المساء، ومن المعروف أن الكورتيزون يزيد من فعاليات الجسم وينشط أجهزته لعمليات التمثيل الغذائي بوجه عام.

و إذا ما أضفنا هذه الفوائد إلى تلك التي يجنيها المسلم من الوضوء والصلاة، نجد أن حكمة الإسلام لا مثيل لها في دعوة الإنسان إلى الاستيقاظ مبكرًا واستقبال اليوم الجديد بجدّ ونشاط، حيث تكون إمكاناته الذهنية والنفسية والعضلية على أعلى مستوى في الساعات الأولى من النهار، مما يؤدي إلى مضاعفة الإنتاج في جوّ ملؤه الرضى والصفاء والسرور. ولو تصورنا أن ذلك الالتزام بتعاليم الإسلام أخذ طابعًا جماعيًّا فسيغدو المجتمع المسلم مجتمعًا مميزًا فريدًا تدب فيه الحياة منذ البكور[1].

4- **تعدد الأقمار والشموس:**

لقد كشف العلم الحديث عن حقائق كونية جديدة، منها أن النجوم التي تزين السماء الدنيا، مثل الشمس، كلها أجرام سماوية كروية متوهجة ذاتيًّا وشديدة الحرارة وتشع الضوء المرئي وغير المرئي بجميع أمواجه. وهذا الضوء أشبه بالرسول الذي يأتي إلينا لنتعرف منه بواسطة الأجهزة الحديثة المتطورة على أحوال هذه النجوم وقوة إضاءتها ودرجة حرارتها ونوعها وموقعها وتحركاتها.

ولقد اتضح أن شمسنا هي أحد نجوم (أو شموس) مجرة تسمى «الطريق اللبني»، وهذه المجرة عبارة عن تجمع نجمي هائل يحتوي على نحو 130 بليون نجم (أو شمس)، وأحصى العلماء أكثر من 2 بليون مجرة في الكون المعروف لنا؛ أي أن عدد النجوم (أو الشموس) الموجودة في الكون يزيد على مائة بليون نجم (شمس).

من ناحية أخرى، يدور حول شمسنا تسعة كواكب هي عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو، ولم يعرف الناس حتى عصر الإسلام ونزول القرآن الكريم غير قمر الأرض، لكن جاليليو حينما اخترع المقراب (التلسكوب)

(1) راجع أحمد فؤاد باشا، **إيمانيات العلم، تمهيد لنظرية المعرفة في الإسلام**، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، القاهرة 1434 هـ/ 2013م.

عام 1610م، أي بعد نزول القرآن بأكثر من ألف عام استطاع أن يكتشف وجود أربعة أقمار تدور حول كوكب المشتري. ومع تطور تقنية المقاريب وأبحاث الفضاء توالى اكتشاف أقمار جديدة للمشتري وباقي الكواكب، ما عدا كوكبي عطارد والزهرة، وأصبح عدد الأقمار المعروفة في مجموعتنا الشمسية حتى الآن حوالي خمسة وستين قمرًا. ويتوقع علماء الفلك والفيزياء أن يزداد هذا العدد في المستقبل، بعد فحص رسائل المركبات والسفن الفضائية التي تزور الكواكب البعيدة وتقترب من أجوائها.

وهكذا اكتشف العلم الحديث شموسًا غير شمسنا، وأقمارًا غير قمرنا، وقد يكون هناك حول تلك الشموس كواكب تدور حولها أقمار أخرى. وبهذا تعددت الشموس والأقمار في هذا الكون، ووافق هذا الواقع الكوني ما أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت].

ولم تفطن معظم التفاسير إلى لطيفة مهمة من لطائف هذه الآية الكريمة، وهي ضمير الجمع المؤنث في كلمة ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ التي تتضمن إعجازًا لغويًّا وعلميًّا بالغًا. وكان الإمام فخر الدين الرازي قد ذكر في تفسيره الكبير أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ لليل والنهار والشمس والقمر؛ لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث، يقال للأقلام: بريتها وبريتهن، ولما قال: ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ كن في معنى الإناث فقال: ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾.

وتحدث الآلوسي عن شيوع اعتبار المؤنث في الجموع حتى قيل:

لا أبالي بجمعهم كل جمع مؤنث

ووجه الإعجاز في الآية الكريمة أن لفظ ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ جاء بضمير الجمع المؤنث بدلًا من ضمير المثنى؛ أي بدلًا من لفظ «خلقهما» كما تقتضيه اللغة العربية لو كان المعنى في الآية مقصورًا على شمسنا وقمرنا فقط. كما أن أداة التعريف «أل» في الآية الكريمة صادقة الدلالة بوجهيها: فهي للعهد، أي الشمس والقمر المعروفين للناس وقت نزول القرآن الكريم، بدليل النهي عن السجود لهما، وهي أيضًا أداة التعريف للجنس؛ أي لجميع الشموس والأقمار بدليل ضمير الجمع في لفظ ﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾.

ونجد لهذا المعنى تعزيزًا وتأكيدًا في مواضع أخرى من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ [نوح]، وذلك إذا اعتبرنا أداة التعريف «أل» في لفظ ﴿ الْقَمَرَ ﴾ للجنس، ويؤكد هذا الاعتبار وجود ضمير الجمع في لفظ فيهن ومثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء] إذا جعلنا ضمير الجمع في الفعل ﴿ يَسْبَحُونَ ﴾ مرده أن تكون أداة التعريف «أل» في «الشمس» و«القمر» للجنس، وإلا لجاء الضمير على التثنية، وتحتم أن يرجع ضمير الجمع في الآية إلى الشمس والقمر، وإلى الليل والنهار معهما حيث يتعاقبان على جوّ الأرض.

وهكذا يتعاون أهل التفسير وأهل اللغة وأهل العلم لبيان أوجه الإعجاز في كلمة أو عبارة من آيات القرآن الكريم؛ ليزداد المؤمنون إيمانًا بأن القرآن وحي من عند الله، وأن الرسول الأُمي العربي الأمين لا يَنْطِقُ عن الهوى.

5- ﴿ بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ ﴾

قال تعالى: ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [البقرة].

ولقد جاء ذكر اللون الأصفر هنا في هذه الآية الكريمة ليصف بقرة بني إسرائيل، تلك البقرة التي أمرهم موسى بذبحها، ولكنهم تعنتوا وتشددوا وضيقوا على أنفسهم فضيق الله عليهم، ووصف لهم البقرة حين سألوا عن لونها بأنها ﴿ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾؛ أي أنها شديدة الصفرة تعجب الناظرين.

واللون الأصفر يحتل أهمية خاصة بين الألوان الأخرى، في علم البصريات، سواء بالنسبة لتركيب العين ذاتها وحساسية إدراكها له، أو بالنسبة لتأثيره النفسي على المشاهد. فأكثر مواضع شبكية العين حساسية للضوء هي المنطقة الواقعة مقابل إنسان العين مباشرة، وتسمى «البقعة الصفراء»، بينما توجد على جانبها من ناحية الأنف منطقة أخرى تتجمع فيها الأعصاب البصرية الدقيقة المكونة للعصب البصري الرئيس، وتسمى «النقطة العمياء»؛ حيث إن حساسيتها للضوء ضئيلة أو منعدمة.

وأظهرت الدراسات العلمية المختلفة أن سطح شبكية العين مغطى بشبكة كثيفة من الأعصاب، بعضها عبارة عن قضبان أُسطوانية الشكل تتأثر بالضوء الأبيض، والبعض الآخر مخروطي الشكل. ويميّز بين الألوان المختلفة عن طريق ثلاثة أنواع من الشعيرات المخروطية الحساسة بدرجة خاصة للألوان الأساسية الثلاثة: الأزرق والأخضر والأحمر. وفي الحالات العادية يعدّ اللون الأصفر أكثر الألوان تأثيرًا على الشعيرات المخروطية بأنواعها الثلاثة.

وعندما تنظر العين السليمة إلى طيف الضوء المرئي كله في لحظة واحدة فإنها تبلغ أعلى حساسية للإبصار عند اللون الأصفر، بينما تقل حساسيتها بدرجة كبيرة لطرفي الطيف: الأزرق والأحمر؛ ذلك أن اللون الأصفر الذي يحتل طوله الموجي موقعًا وسطًا في الطيف المرئي لا يحتاج إلى جهد من عدسة العين حتى تتم عملية التكيف اللازمة للرؤية. ولذا فإن النظر إليه لا يسبب أي شعور بالتعب أو الملل أو الصداع. ويستخدم اللون الأصفر في الاختبارات الطبية لقوة الإبصار، وفي اختبارات أخرى عديدة.

ولما كان الإحساس البصري ينتج عن أثر موجات ضوئية، فإن الموجات المختلفة في أطوالها تعطي إحساسًا بألوان مختلفة. فإذا حدث وكانت موجة اللون الأصفر ليست هي السائدة في الضوء الساقط على العين، فإن هذا يعطي إحساسًا بلون باهت، وكلما زادت درجة سيادة اللون الأصفر في النطاق البصري لطول موجته فإنه يصبح أكثر تشبعًا حتى يصل إلى درجة اللون الموحد الذي يكون فيه أصفر فاقعًا، وعندئذ يكون في أعلى درجات تأثيره على الخلايا العصبية المخروطية، ويكون أكثر وضوحًا بحيث يعجب الناظرين.

من ناحية أخرى، يخبرنا أهل الاختصاص في علم البيطرة بحقيقة مهمة مؤداها أن خير الأبقار وأفضلها هو ما كان لونها شديد الصفرة في صفاء، وأنه على قدر صفاء اللون وسلامة الأسنان تكون صحة البقرة، وكذلك من علامات عافيتها إثارتها للغبار على الأرض بحوافرها، وذلك بفعل قوتها وشدتها، إن هي لم تجهد بالعمل في الحراثة وما شابهها. قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ [البقرة: 71]؛ أي لا عيب فيها ولا لون غير لونها.

وهكذا يتضح أن حقائق العلم الحديث توافق ما سبق أن أشارت إليه آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن أوصاف بقرة بني إسرائيل.